

كتاب

التبر المسبك

في

تدبير الملك

«يحتوي على تهذيب الرياسة وترتيب السياسة»

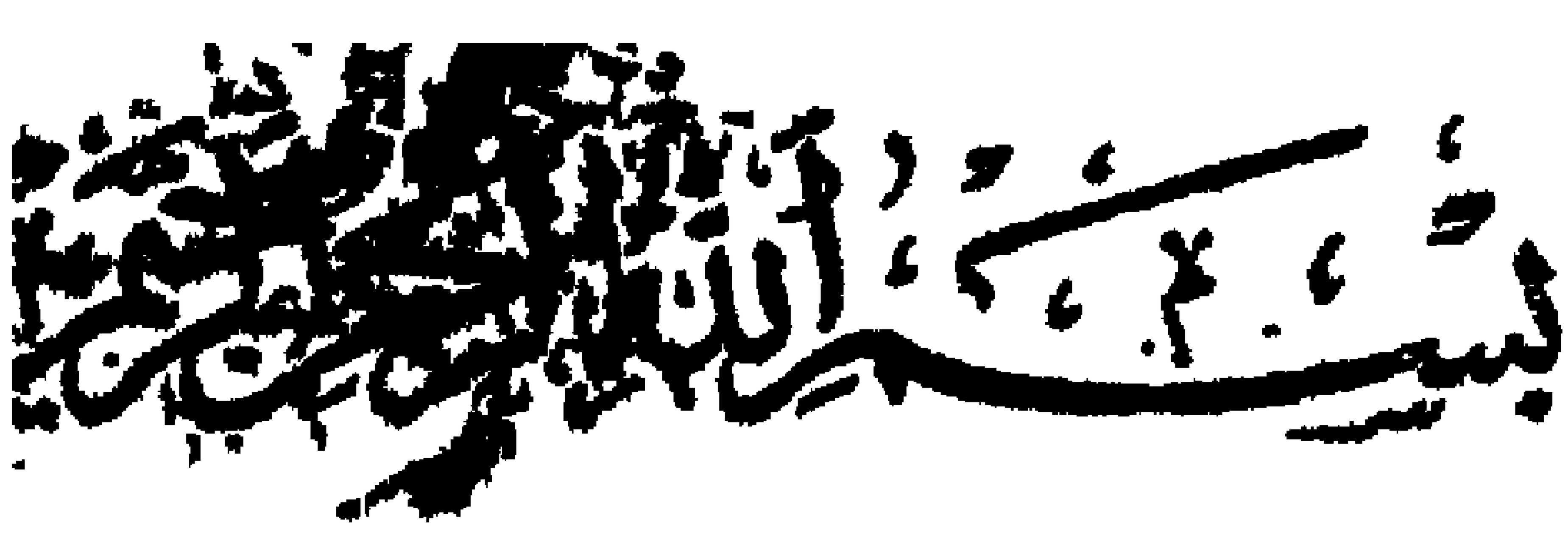
تأليف

الشيخ الإمام العلامة أبي الحسن علي بن الأهوازي الحنفي
رحمه الله

وقد طبع على نفقة مطبعة التمدن

الطبعة الأولى

بمطبعة التمدن بشارع محمد علي بمصر سنة [illegible] هـ



الحمد لله العليّ الكبير . السميع البصير . والصلاة والسلام على سيدنا محمد البشير النذير . الداعي الى نجاة من عذاب سعير . وعلى آله وصحبه الذين [illegible] تيسير . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له القوي القدير وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المرسل رحمة لكل كبير وصغير صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين أمرهم كان شورى بينهم في كل حين وحال [illegible] الظفر والنصر على النفس والقوى [illegible]

{وبعد} فقد استخرت الله تعالى في جمع هذا الكتاب [illegible] الالباب . وان كانوا هم مخصوصين [illegible] الله تعالى في [illegible] خير [illegible] ومالك الامر [illegible] المعول عليه

الباب الاول

(وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الاول

﴿ في العقل والمشورة ﴾

قال الله عزَّ من قائل : ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وقال جلَّ جلالهُ : ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب . فما خاطب الله تعالى الا أُولي الالباب . وقال تعالى : وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون . وَرُوِي عن النبي صلى الله عليهِ وسلم انهُ قال : اول ما خلق الله العقل فقال لهُ أقبل فأقبل ثم قال لهُ أدبر فأدبر فقال عزَّ وجل وعزتي وجلالي لاسكننك في خيار خلقي ما خلقت خلقاً أعز عليَّ منك بك آخذ وبك أُعطي وبك أُحاسب وبك أُعاقب . واعلم ان العقل ينقسم الى قسمين قسم لا يقبل الزيادة والنقصان وقسم يقبلهما . فالاول هو العقل الغريزي المشترك بين العقلاء وهو الذي يجري به القلم على صاحبهِ عند أوان حصولهِ إِما بالسنّ او الاحتلام فتجري عليهِ الاحكام الشرعية حين أوانهِ وهو قوة غريزية يسكنها فيهِ خالق سبحانهُ تؤدي الى ادراك المعقولات فيجري عليهِ التكليف بالاحكام . والثاني وهو الذي يقبل الزيادة والنقصان . قال الله عز وجل : هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع

إيمانهم . ففي الحقيقة العقل واحد ومحله القلب ونوره متصل بالرأس . هذا ما ذهب اليه الامام مالك والامام الشافعي رضي الله عنهما . وأما مذهب الامام أبي حنيفة والامام احمد بن حنبل فمحله الرأس بدليل ان انسانًا لو ضرب آخر على رأسه فذهب عقله فعليه الدية . وزيادته ونقصه مكتسب بحسب التجارب والوقائع والحوادث وباعتبار هذا الحال يكون الشيخ أتم عقلاً وأكمل تدبيرًا ولو زاد عن سنك ولو بيوم . ولهذا قيل : من بيضت الحوادث سواد لمته وأخلقت التجارب لباس حدته وأرضعه الدهر من وقائع الايام أخلاق درته وأراد الله تعالى بكثرة ممارسته الامور تصاريف اقداره وأقضيته كان جديرًا برزانة العقل ورجاحته فهو في قومه بمنزلة النبي في أمته . وقد يخص الله تعالى بألطافه الخفية من يشاء من عباده فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة يخرج به عن حد الاكتساب . فيصير به راجحًا على ذوي التجارب والآداب . لكن لا بد من الاستعانة على كل ما تشاء فعله من المشاورة بعد الاستخارة . قال عليه الصلاة والسلام : ما خاب من استخار ولا ندم من استشار . وقد خص الله سبحانه وتعالى سيد الانبياء صلى الله عليه وسلم بكمال الخلق والخلق وتمام العقل والنقل حتى انه سبحانه أعجب به فقال عز من قائل : وانك لعلى خلق عظيم . ومع ذلك قال له سبحانه وتعالى : ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر . هذا وهو صلى الله عليه وسلم أكمل الخلق عقلاً ونقلاً . فبهذا الاعتبار المشورة لا بد منها في كل امر مهم تريده

ولو استشرت اكبر منك او اصغر منك فاياك وترك المشورة اقتداء بالنبي الكريم وعملاً بالكتاب العزيز . ألا ترى ان ابراهيم عليهِ وعلى نبينا افضل الصلاة والسلام استشار ولده اسماعيل وهو صغير لما أُمر بذبحهِ فقال كما حكى الله تعالى عنهُ في الكتاب العزيز : قال يا بنيَّ اني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى . فكان هذا مشاورة من سيدنا ابراهيم وهو ابو الانبياء صلوات الله عليهم لولدهِ اسماعيل وهو حين ذاك صغير . فباعتبار ما روينا من الآيات الشريفة والاحاديث تجب المشاورة من كل صغير وكبير وخصوصاً في الامور المهمة ولا بد من التأني والتربص فان العجلة ندامة

ومما جاء في المشورة : اعلم أيها الحليم ان من شرف المشورة وعموم نفعها ما بهِ أمر الله عز وجل نبيهُ صلى الله عليه وسلم حيث قال تعالى لهُ في حق اصحابهِ رضوان الله عليهم : وشاورهم في الامر . فعلى وليّ الامر ان يقابل شكر نعمة الولاية التي انعم الله تعالى عليهِ بها باستعمال العدل مع الرعية واجتناب الجور في كل قضية . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من سلَّ سيف الظلم والجور سلَّ الله عليهِ سيف الغلبة ولازمهُ الغم . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : رجلان من أمتي يحرمان شفاعتي ملك ظلوم مبتدع وغال في الدين يتعدى الحدود . وما ورد في الحث على العمل بالعدل آيات كثيرة وأحاديث يضيق عنها هذا المجموع . عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : القصد والتؤدة وحسن الصمت جزء من خمسة وعشرين جزأً من النبوَّة . والتؤدة التأني والتثبت

فاقتدوا بنبيكم صلى الله عليهِ وسلم فقد قال: الاناءة من الله والعجلة من الشيطان. وقيل لبعض الحكماء: بِمَ يعرف عقل الرجل. قال: بقلة كلامهِ وطول صمتهِ. ألا ترى ان الله تعالى خلق للرجل أذنين ولسانًا واحدًا الحكمة في ذلك حتى يكون استماعهُ اكثر من كلامهِ. ويقال ثلاثة أشياء مجلبة للآلام ومؤدية الى الامراض والاسقام: كثرة الكلام وكثرة المنام والاستكثار من الطعام. عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا او ليصمت. وقال صلى الله عليهِ وسلم: من صمت نجي. وقال عليهِ الصلاة والسلام: طوبى لمن كان نظرهُ عبرًا ونطقهُ ذكرًا وصمتهُ فكرًا. ويقال: ان من لزم الرقاد حرم المراد. ولا يكفي في الدلالة على كمال المرء حسن ملبسهِ وملاحة شيمتهِ وحسن لحيتهِ ونظافة لباسهِ بل هو كما قال النبي صلى الله عليهِ وسلم: المرء مخبوءٌ تحت لسانهِ. قيل: فبماذا يعرف كمال الرجل اذا كان غائبًا. قال: إما بكتابهِ او برسولهِ او بهديتهِ فان كتابهُ يصف نطق لسانهِ ورسولهُ قائم مقام نفسهِ وهديتهُ عنوان همتهِ. قال الاصمعي: رأيت في البصرة رجلاً حسن الهيئة حسن اللباس وعندهُ أناس جلوس وقومٌ قيام وحولهُ حاشية وأمرٌ ونهي فأردت خطابهُ لاختبر عقلهُ فسلمت عليهِ وجلست عندهُ وقلت لهُ: ما كنية سيدنا. فقال: ابو عبد الله الرحمن الرحيم مالك يوم الدين. قال: فضحكت وخجلت وعلمت قلة عقلهِ. وما أحسن جواب يزدجرد وقد سألهُ انوشروان: ما زينة الرجل. قال: العقل الذي يسود بهِ على سائر اقرانهِ. قال: فان لم يكن. قال: علمٌ

يبلغ بهِ درجات العقلاء . قال : فان لم يكن . قال : خلقٌ حسن يعاشر بهِ الناس . قال : فان لم يكن . قال: كرم يستر مانقص من دينهِ لان الدين تابع للعقل فاذا نقص العقل نقص الدين . قال: فان لم يكن . قال : أدب يستعين بهِ على ما ابتليَ بهِ في دهرهِ . قال : فان لم يكن . قال : صمت يستر جهلهُ . قال : فان لم يكن . قال: صاعقة من السماء تنزل عليهِ فتحرقهُ . وأنشد بعضهم

اذا كنت ذا عقلٍ فلاتخشَ غربةً * فما عاقل في بلدة بغريبِ
يعدُّ رفيع القدر من كان عاقلاً * وان لم يكن في أهلهِ بحسيبِ

عن ابي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الرجل ليتكلم الكلمة لا يلقي لها بالاً يهوي بها سبعين خريفاً في النار . وعن ابن عمرو بن العاصي قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانهِ كما تتخلل البقرة . يعني الكثير الكلام

وروي ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : وهل يكبُّ الناس في النار على وجوههم الا حصائد ألسنتهم . وعن عيسى عليهِ السلام مرَّ في الطريق بكلب او خنزير فقال لهُ : تنحَّ بسلام . فقيل لهُ : تقول هذا لخنزير . قال : بلى اني اخاف ان يعتاد لساني النطق الفاحش . وقال رسول الله صلى الله عليه وسا : لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام قسوة للقلب وان ابعد الناس من الله القاسي القلب . قال بعض الحكماء : ان يزدجرد بن بهرام سألَ فيلسوفاً : ما صلاح الملك . قال: الرفق بالرعية وانصاف المظلوم من ظالمهِ او التودد بالعدل وأمن السبل والتؤدَة في الامور وأخذ الحق بغير عنف واقامة العقوبة على من استحقها بقدر الذنب

لا بقدر هوى النفس والغضب. قال: فما صلاح الملك. قال: وزراء صلحاء عقلاء نصحاء لايخرج الملك عن رأيهم ولا يفعل امرًا بغير مشورتهم فانهم اذا صلحوا أدّى صلاحهم الى صلاح الملك. وقال الله تعالى لنبيهِ صلى الله عليه وسلم في حق اصحابهِ رضوان الله عليهم: وشاورهم في الامر. قال تعالى يمدحهم: وأمرُهم شورى بينهم. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: غير ما مرة اشيروا عليّ. وفي الحديث الشريف: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار. حكي عن الشعبي قال: لما قدمَ الحجاج لقتل شيعة علي بن ابي طالب وقتل كل من مال اليهم ووالاهم فسفك وهتك وقتل وفتك واستباح المحظور وفعل في الناس من النكال ما جاوز حد الانتقام فخشيت على نفسي وصرت في حيرة لا أدري بمَ اعتذر لهُ وما شككت انهُ سيقتلني. وكان كاتب الحجاج صديقًا لي. فقال لي: اذا احضرك في غد بين يديهِ فاعتذر لهُ فعساك تنجو من شرهِ. قال: فحدثتني نفسي بأن أختلق اعتذارات تقرب من عقلهِ خشية لعلي بها أنجو منهُ وما ظننت لا انهُ سيبطش بي. فلما كان الليل فكرت في نفسي وتدبرت امورًا اختلقتها أعتذر اليهِ بها لعل ان يقبلها. فلما أصبحت طفقت على أقوام لي في عقولهم اعتقاد وفي تدبيرهم حسن ظن واعتماد فالتجأت اليهم وقلت: ما تشيرون عليّ في امري ما اظن الا ان الحجاج الساعة سيبدأ بي ولا أدري بأي عذر أنجو بهِ عندهُ. فاتفقت آراؤهم على ان الصدق أولى ما نطقت بهِ عندهُ. قال: فلم أشعر الا وقد طلبني. فلما صرت اليهِ ومثلت بين يديهِ سلمت عليهِ بالامير فنظر اليَّ كالاسد الغضبان. فقلت: اصلح الله الامير ان

الاعتذار بغير ما يعلم الله انهُ الحق لقبيح عند من هو دونك وأيم الله لا أقول في مقامي هذا الا الصدق والحق ووالله لقد جهزنا وحرّضنا فما كنا بالاقوياء الفجرة ولا بالاتقياء البررة ولقد نصرك الله علينا وظفرك بنا فان سطوت فبذنوبنا وان عفوت فبحلمك والحجة لك علينا . فلما سمع الحجاج كلامهُ سكن غضبهُ وقال : لقد عفوت عنك لصدقك ولأنت الآن والله أحب الينا ممن يدخل علينا وسيفهُ يقطر من دمائنا ويعتذر بأعذار لا تقبلها عقولنا ولكن حيث صدقتنا فقد عفونا عنك فطب نفساً وافلح راشداً . قال : فخرجت من عندهِ آمناً على نفسي وأهلي ببركة المشورة

ولهذا قال بعضهم : لا معين أقوى من المشورة ولا عون أنجح من العقل فان المشورة تقوّي العزم وتوضح الحق وترشد الى الاصابة والعقل يهدي الى اجتناء ثمرة المشورة

الفصل الثاني

﴿ ما جاء في العدل ﴾

قال الله تعالى : ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون . قال قتادة : ان الله تعالى أمر عبادهُ في هذه الآية بمكارم الاخلاق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أحب الناس الى الله وأقربهم هو السلطان العادل وأبغضهم الى الله وأبعدهم السلطان الجائر . وقال صلى الله عليهِ

وسلم : ان المقسطين في الدنيا على منابر من لؤلؤ يوم القيامة بين يدي الرحمن بما أقسطوا في الدنيا

يروى أن رجلين دخلا على داود عليهِ السلام أحدهما صاحب غنم والآخر صاحب حرث . فقال احدهما : ان غنم هذا دخلت حرثي ليلاً فأكلته وأهلكته ولم يبقَ لي فيهِ شيء . فقال داود عليهِ السلام : الغنم لك في مقابلة حرثك . فلما خرجا من عندهِ مرّا على ولدهِ سليمان وهو ابن أحد عشر سنة فقال : بمَ حكم بينكما الملك . فذكرا لهُ ذلك . فقال : غير هذا أرفق بكما . فرجعا الى داود فقال لهما : لمَ رجعتما . فذكرا له ما قال سليمان ولده . فدعاهُ داود فقال له : وما هو الارفق بهما . فقال سليمان : تسلم الاغنام لصاحب الحرث (وكان الحرث كرماً قد تدلت عناقيدهُ وتمت قضبانهُ) فقال سليمان : فيأكل صاحب الحرث ابن تلك الاغنام فاذا صارت على هيئتها يوم اكلت سلمت الى ربها ونسلم الغنم الى ربها . فقال داود عليهِ السلام : القضاء كما قلت . وحكم بما قال سليمان . وفي ذلك نزل قولهُ تعالى : وداود وسليمان اذ يحكمان في الحرث

ومما روي ان كسرى انوشروان رأى رؤيا هالتهُ فجمع علماء عصرهِ فقصها عليهم بعد ان ضاق بها صدرهُ واضطرب لها فكرهُ فاتفقت كلمتهم ولم يقع بينهم خلف فيما أدت اليهِ معرفتهم فقالوا لهُ أيها الملك : ان هذه الرؤيا تدل على ان شيرويه لا بد ان يقتل اباهُ ويستولي على ملكهِ ويتصرف في خزائنهِ . فلما سمع كسرى ذلك تدبر بعقلهِ وتأمل بفكرهِ فاعتمد حالة أداها اليهِ فكرهُ واستخرجها بعقلهِ وقال : ان فعلها ما يضرني

وان كان المنام اضغاث احلام وقصد ان يقتص بهذه الفعلة من قاتلهِ ان كان فأخذ سماً قاتلاً لوقتهِ وخلطهُ بمعجون ووضعهُ في قارورة وكتب عليهِ بخطهِ (دواء للجماع من تناول منهُ وزن درهم جامع ما شاء) وختم الملك تلك القارورة بختمهِ ووضعها في خزائنهِ . فما كان الا قليلا حتى قام عليهِ ولدهُ فقتلهُ وجلس على سرير ملكهِ ثم أخذ ينفذ الخزائن فرأى تلك القارورة ففرح بها وقال : لقد كان والدي الملك يستعين بهذا على الجماع ثم أخذ منهُ وزن درهم فاستعملهُ فمات لوقتهِ . فعدَّت هذه الحيلة من كمال عقلهِ . وكان كسرى يقدم يونان الوزير على سائر وزرائهِ ويعظمهُ فقيل له : ما السبب في ذلك . فقال لهم : ان من خصهُ الله بكمال العقل وزيادة المعرفة قدم على نظرائهِ وأبناء جنسهِ وهذا يونان لما أفيض اليَّ الملك تشاغلت اياماً بالصيد فكتب اليَّ يقول : ليعلم الملك ان خمسة اشياء ضائعة : المطر في ارض سبخةٍ وسراج في الشمس وامرأة حسناء عند رجل أعمى وطعام بين يدي مريض ورجل عاقل عند من لا يعرف قدرهُ وقال : فعرفت انهُ قصد ان يوقظني فتركت ما أنا فيهِ وعكفت على المملكة ثم احضرتهُ وقلت : صف لي ملوك الدنيا في سيرتهم ورعاياهم . فقال : الملوك ثلاثة واحد ينتصف من نفسهِ لرعيتهِ ويتجاوز عنهم فذلك اعلاهم درجة واكملهم عقلاً وأدومهم ملكاً وأعمرهم بلاداً وأمكنهم تعوب رعاياهُ وواحد ينتصف لهم من نفسهِ وينتصف منهم لنفسهِ وهو اوسطهم فذاك الذي عمل بالعدل ولم يكتسب الفضل . والثالث ينتصف منهم لنفسهِ ولا ينتصف من نفسهِ لهم فهذا اقبح سيرة لانهُ تعجل

لنفسهِ الهلكة فان رعاياهُ تبسط ألسنتها بالدعاء عليهِ واكفها بالتضرع الى من بيدهِ ملكوت العالم فلا يوشك ان يزول ملكهُ . فانظر أيها الملك الى هذه الاحوال واختر لنفسك منها ما تحب لكني أعلم ان نفس الملك شريفة فهو لا يختار لنفسهِ الاسيرة الملك الاول . فلما سمعت قولهُ علمت انهُ رزق عقلاً وفضلاً فعملت بقولهِ فمن اجل ذلك قدمتهُ على غيرهِ .

ومما يروى عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : اذا صنع الرجل المعروف مبتدئاً بهِ وتجاوز عن الزلة وجاد بما هو محتاج اليهِ وتجنب مواطن الاعتذار فقد تم عقلهُ

انَّ الامورَ اذا اشتدت مسالكها * فالصبرُ يفتح منها كلما ارتججا
لا تيأسنَّ وَان طالت مطالبةٌ * اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

وقال بعضهم : لا يقومُ الملك الا بالرجال ولا رجال الا بالمال ولا مال الا بالعمار ولا عمار الا بالعدل . وقال : السلطان ان لم يكن من الاقطاب كان من الابدال . وقال : كل ظلم علم بهِ السلطان وسكت عنهُ كان ذلك الظلم منسوباً اليهِ وأُخذ بهِ وعوقب عليهِ . قال النبي صلى الله عليهِ وسلم : يقول الله تبارك وتعالى في بعض كتبهِ المنزلة انا الله الذي لا اله الا انا مالك الملك وملك الملوك وقلوب الملوك في يدي أقلبها كيف أشاء فاذا اطاعني عبادي حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة واذا عصوني حوَّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة فأذاقوهم سوء العذاب فلا تشغلوا انفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا انفسكم بالتوبة والتضرُّع اليَّ والعمل الصالح اكفكم شرَّ ملوككم .

وقال صلى الله عليهِ وسلم : اعمالكم عمالكم كما تكونوا يولّ عليكم . وقال صلى الله عليهِ وسلم : السلطان ظل الله في الارض يأوى اليهِ كل ملهوف . وقال صلى الله عليهِ وسلم : اللهم الطف بكل والٍ تلطف برعيتهِ اللهم من وُلي امرًا من امور امتي فرفق بهم فارفق اللهم بهِ اللهم من وُلي امرًا من امور أمتي فشق عليهم فاشقق اللهم عليهِ فاشقق اللهم عليهِ فاشقق اللهم عليهِ

﴿ حكاية عجيبة ﴾

قيل لما بلغ الوليد بن يزيد بن عبد الملك ان ابن عمهِ يزيد قد أوغر عليهِ الصدور وشرّد عنهُ القلوب واستجاش عليهِ ونازعهُ ملكهُ استوحش من بطانتهِ واحتجب عن سمارهِ ثم دعا بالعشيّ خادمًا وقال لهُ: انطلق متنكرًا فقف في بعض الطريق فاذا رأيت كهلاً رث الهيئة يمشي الهوينا مطرقًا رأسهُ فسلم عليهِ وقل لهُ في أذنهِ: أجب أمير المؤمنين فانهُ يدعوك فان أسرع الاجابة فأتني بهِ وان تلكأ أو استراب فدعهُ وتطلب غيرهُ حتى تأتيني برجلٍ على هذا الشرط . فانطلق الخادم فأتى بكهلٍ على ما وصف امير المؤمنين . فلما دخل حياهُ بتحية الخلافة فأمرهُ الوليد بالجلوس الى ان ذهب روعهُ وسكنت دهشتهُ ثم أقبل عليهِ فقال لهُ امير المؤمنين: مرحبًا أتحسن مسامرة الخلفاء . قال : نعم أحسنها ان شاء الله تعالى . فقال الوليد : ان كنت تحسنها فاخبرني ما هي . فقال : إخبر بنصت وانصات لخبر ومفاوضة فيما تعجب ويليق . فقال الوليد : لا أزيدك امتحانًا فقل ينصت لك . فقال الكهل : يا أمير المؤمنين انهُ بلغني أن امير المؤمنين عبد الملك بن مروان رحمهُ الله لما عزم

على قتال عبد الله بن الزبير استصحب معهُ عمرو بن سعيد بن عمرو بن العاص وكان عمرو بن سعيد قد انطوى على دغل نية وفساد طوية طمعاً في نيل الخلافة وكان عبد الملك قد فطن لذلك الا انهُ يبقي عليهِ لتأكيد حرمتهِ . فلما خرج امير المؤمنين عبد الملك من الشام وسار أياماً تمارض عمرو بن سعيد فاستأذن العود الى دمشق فأذن لهُ فرجع . فلما دخل دمشق صعد المنبر ودعا الناس الى خلع عبد الملك فأجابوهُ فبايعهم وبايعوهُ واستولى على دمشق وحصن سورها . فبلغ عبد الملك ذلك وأن العمال بحمص وغيرها وأهل الثغور قد تشوَّفوا الى الخلاف فدعا وزراءهُ فأخبرهم بذلك وقال : هذه دمشق دار ملكنا قد استولى عليها عمرو بن سعيد وهذا عبد الله قد استولى على الحجاز ومصر واليمن والعراق وجميع العمال وأهل الثغور قد نزعوا ايديهم من الطاعة وهذه المصرية سيوفها على عواتقها تطالبنا بقتلى المرج فما الرأي وماذا يكون التدبير . فلما سمع وزراؤهُ ذلك ذهلت عقولهم ولم ينطقوا . فقال لهم عبد الملك : ما لكم لا تنطقون فهذا وقت الحاجة اليكم . فقال لهُ أفضلهم : أيّ غناء عندنا في هذه الخطوب والله لقد وددت اني كنت حرباً على عود من اشجار تهامة حتى تنقضي هذه الفتنة . فلما سمع عبد الملك مقالتهُ علم ان لا غناء عندهُ فقام عنهم ثم ركب من فورهِ منفرداً وأمر ان يلحقهُ بعض فرسانهِ بالسلاح ويتبعوهُ عن بعدٍ بحيث يرون اشارتهُ اذا أشار اليهم . ثم لم يزل سائراً وهم يتبعونهُ حتى انتهى الى شيخ كبير السن فسلم عليهِ عبد الملك وآنسه بالحديث ثم قال لهُ : أيها الشيخ ألك علم

بمنزلة هذا العسكر في هذه المحطة . فقال : بلغني انهم نزلوا بكذا . فقال عبد الملك : فما يقول الناس في امرهم . فقال الشيخ : ما سؤالك عنهُ . فقال عبد الملك : أُريد اللحاق بهم والدخول معهم . فقال الشيخ : أتحب ان أنصحك . فقال عبد الملك : ما أحوجني الى ما تقول . فقال الشيخ : ينبغي لك ان تصرف نفسك عن هذا العزم فان امير هؤلاء القوم قد انحلت عرى ملكهِ ونابذهُ أتباعهُ وارتبش عليهِ امرهُ والملك في حالة ارتياش الامر عليهِ يصير كالبحر في حال هيجانهِ فلا ينبغي ان يقرب . فقال عبد الملك : أيها الشيخ ان الحنكة لم تبلغ في مقابلة نفسي فيما ترغب اليهِ واني اجدها تنزع الى صحبة هذا العسكر ولا بدّ لي من ذلك فتخير لي ما تراهُ من الرأي وان تدبرت لي في امرٍ تدخل بهِ على وجهِ النصيحة لامير هذا العسكر رجاء ان يكون ذلك سبباً لقربي منهُ . فقال لهُ الشيخ : يا ولدي اني لأظن ان هذه النازلة التي نزلت بهذا الخليفة من النوازل التي لا تنفذ فيها العقول ولا تهتدي فيها الى صواب واني لاكرهُ ان ارد مسألتك بالخيبة فها انا أقول فيما سألتني عنهُ قولاً أقضي بهِ حق رغبتك وان كنت لا أثق بنفسي لان الخطب عظيم جداً ولكن الامور كلها بيد الله . فقال عبد الملك : قد جزاك الله خيراً . فقال الشيخ : اعلم ان هذا الخليفة خرج بعسكرهِ هذا لمحاربة عدوّهِ فظهر من مشيئة الله تعالى أنهُ لا يريد لما قصدهُ والدليل على ذلك وثوب عمرو بن سعيد على ملكهِ واستفساد رعاياهُ واستيلائهِ على بيوتهِ وأموالهِ وجلوسهِ على سرير خلافتهِ واني مشيرٌ عليك بتفقد حال أمير هذا القوم وانتظار ما يكون

منهُ فان رأيتهُ متماديًا فيما خرج اليهِ وأصرَّ على قصدهِ ابن الزبير فاعلم انهُ مخذول لان الله سبحانهُ قد اظهر لهُ من حكمتهِ أمرًا يقطعهُ عن التمادي لما خرج اليهِ فأبى الاَّ لحاحًا . وان رأيتهُ قد رجع من حيث أتى فارجُ لهُ السلامة لانهُ مستقيل مراجع والله سبحانهُ اهلٌ ان يقيل من استقالهُ . فقال عبد الملك : أيها الشيخ فهل الآن رجوعهُ الى دمشق الاَّ كسيرهِ الى ابن الزبير مع ما والى رعيتهُ غيرهُ وبسطوا أيديهم بالبيعة الى عمرو بن سعيد . فقال الشيخ : ان الذي أشكل عليك لواضح فها انا ازيل ما عندك من اللبس وهو ان عبد الملك ان قصد ابن الزبير فهو في صورة ظالم لهُ لان ابن الزبير لم يعطهِ طاعة قط ولا وثب لهُ على ملكهِ وانهُ اذا قصد عمرو بن سعيد كان في صورة مظلومٍ طالب حقهُ لان عمرو بن سعيد نكث بيعتهُ وخان امانتهُ وأفسد رعيتهُ ووثب على ملك لم يكن لهُ ولا لابيهِ من قبلهِ وهو عليهِ معتدٍ . ولكن اعلم يا بنيَّ ان ملاك الامر كلهُ الرأي وحسن التدبير فان كل رأي لم تمحض بهِ الفكرة ليلة كاملة فهو كمولود وُلد لغير تمام وأفضل الرأي ماأجادت الفكرة في حندس الليل تقدهُ وأحكمت الرَّوية عقدهُ . واعلم : ان هوى النفس صدأ يعلو العقل فيضل عن الهوى . وكان يقال : لا ترشد تابع هوى نفسهِ في حال استيلاءِ الشهوة او الغضب لانهُ في حال احتجاب عقلهِ لان الهوى قاهرٌ لهُ أو الغضب فحينئذٍ يبسط الهوى سلطانهُ وينفذ في العقل حكمهُ فيكون ذلك سببًا للهلاك والله اعلم لانهُ اذا ساء التدبير باستيلاءِ الهوى على العقل هلك صاحبهُ وأهلك معهُ من يناصرهُ . وكان يقال : ليس

الاسير من أسرهُ عداهُ انما الاسير من اقهرهُ هواهُ واستبد برأيهِ ولم يستشر أعلاهُ وأدناهُ . واعلم : ان الرأي سيف العقل وأمضى السيوف ما بولغ في ارهاف حدهِ وأُجيد صقلهُ . ولا تنصقل مرآة العقل الا عند اجتماع الحواس الخمس وأصفى اجتماعها وامكنهُ في هدأة الليل . فاذا أردت ان أُمعن لك في فكر تدبير هذا الامر فانطلق معي فبت ليلتك عندي لأرى لك في هذه الليلة من تدبير الرأي ما سنح لي من ذلك . وكان يقال : احترس من تدبيرك على عدوّك كاحتراسك من تدبيرهِ عليك واياك والعجلة فربَّ هالك بما دبر وساقط فيما احتفر ومجروح بالسيف الذي اشتهر . فلما سمع عبد الملك من الشيخ هذه النصيحة سرَّ وتهلل وجههُ وقال لهُ : جزيت عني خيرًا واني أُريد ان تجعل بيني وبينك موعدًا نلتقي بهِ بعد يومي هذا . فقال لهُ الشيخ : وما تشاء بذلك مني . فقال عبد الملك : اني أُريد أن أُؤمل ان انتفع برأيك عند الامير فأكافئك على ما كان منك . فقال الشيخ : قد أُعطيت عهدًا ان لا أتحمل منة بخيل . فقال عبد الملك : ومن أين علمت اني بخيل . فقال الشيخ : كيف لا أعلم وقد أخرت صلتي ومكافأتي مع قدرتك على تعجيلها وما معك من اللباس البهي والسلاح السني . قال عبد الملك : فوالله لقد ذهلت من تأملي ذلك فنزعت سيفي وقلت : اقبلهُ مني واياك ان تخدع فيهِ فان شراءه عشرون ألف درهم . فقال الشيخ : اني لا اقبل صلة ذاهل فدعني وزيي . فلما سمع عبد الملك مقالتهُ علم فضلهُ ودينهُ فقال : يا أخي اعلم اني انا عبد الملك فاعمدني وارفع اليَّ حوائجك . فقال الشيخ : وأنا ايضًا

عبد الملك فهلمّ نرفع حوائجنا الى من أنا وأنت له عبيد . ثم قام الشيخ من عنـده منصرفا . قال : فانطلق عبد الملك وعمل برأي الشيخ فنجح أمره وأظفره الله بعدوه وعاد ملكه اليه . فلما سمع الوليد ما حكى له الكهل استراح عقله واستظرف أدبه فسأله عن اسمه فسمى له فلم يعرفه الوليد فاستحى منه الوليد وقال : ان من جهل مثلك من رعيته لمضيع . فقال له الكهل : يا أمير المؤمنين ان الملوك لا تعرف الا من تعرّف اليها ولزم ابوابها . فقال الوليد : كلا والله لا توسعنا عذرًا لا نستحقه . ثم أمر له بصلة معجلة وعهد اليه أن لا يفارقه ابدًا

ومما يستدل به على ادبار الملك . الاول : استكفاء الملك بالاحداث وبمن لا خبرة له بالتفكر في العواقب . والثاني : أن يقصد أهل مودته بالأذى . والثالث : استهانته بنصيحة العقلاء ممن هو أسن منه فان من عصى نصيحة أسن منه فقد استفاد لنفسه عدوا وان من عدم التفكر في العواقب وترك التأني في الامور فقد عجل لنفسه الردى . ويقال : أشقى الناس الوزراء الاحداث والشيوخ العنف

ومما هو من الحكم قال بعض الحكماء : من ظن من الملوك أن لفطنته فضيلة على فطنة وزيره فقد غلط وضل ومن خالف في هذا [illegible] مخافة الوزير لم ينجح ابدًا وانه اثم . واعلم يا أخي ان من غرس العلم جنى النباهة ومن غرس الزهد جنى العز ومن غرس الاحسان جنى المحبة ومن غرس المداراة جنى السلامة ومن غرس الطمع جنى الذل ومن غرس الحسد جنى الخزي . وقال بعض الحكماء : شيئان يدتبان الحرّ

كمال الحرية وهما قبول البرّ وافشاء السرّ فان من قبلت برّهُ فقد أوجبت على نفسك الخضوع لهُ . وبالاحسان يسترقّ الانسان ومن أطلعتهُ على سرّك فقد صرت أسيرًا لهُ حذرًا ان يذيعهُ أي يفشيهِ فملكك بذلك .
وقال بعض العارفين بالله : اربعة ترفع الرحمة عنهم اذا نزل بهم المكروهُ : من اكذب طبيبهُ فيما يصف لهُ من دائهِ أوخالف نصيحهُ فيما يبذل له من نصيحتهِ او بذل مالهُ في شهواتهِ ولذاتهِ أو قدم على ما حذر من آفاتهِ .
قال تميم بن عدي اليربوعي : سألت عبد الله بن العباس رضي الله عنهُ عند منصرفهِ من دمشق فقلت : بالله عليك الا اخبرتني بمَ يتم عقل الرجل قال : اذا صنع المعروف مبتدئاً بوجوده بما هو محتاج اليهِ وتجاوز عن زلة وجازى على المكرمة وتجنب مواطن الاعتذار فقد تم عقلهُ . قال تميم : فحفظت ذلك وثبتّه بقلبي ثم بعد أيام نزلنا منزلاً فطلبنا طعاماً لم نجدهُ ولا قدرنا عليهِ لان زياداً كان قد نزل في ذلك المنزل قبلنا نازلاً في جمع كبير فلم يتركوا فيهِ طعاماً . فقال عبد الله لرجل : اخرج في هذه البرية فلعلك تجد بها راعياً او احداً . فخرج ومعهُ غلمان فلم يلبثوا حتى ما كادوا ان يرجعوا واذا بخباء فأموهُ فاذا فيهِ عجوز . فقالوا لها : هل عندك طعام نبتاعهُ منك . قالت : اما للبيع فلا غير أن عندي كفايتي وكفاية اولادي ان مست حاجة . قالوا : وأين أولادك . قالت : في رعي بهم وهذا وقت مجيئهم . قالوا : فما أعددت لهم . قالت : خبزة . قالوا : تجودين لنا بنصفها . قالت : لا والله بل بكلها . فقالوا : ولمَ منعت النصف وجدت بالكل وليس عندك غيرها . قالت : وجدت منكم

اضطرارًا اليها واعطاء شطر خبزة نقيصة . ثم أنتهم بها . فلما أتوا عبد الله أخبروهُ بخبر العجوز وما قالت لهم . فأمر بحملها اليهِ مكرمة فرجعوا اليها فقالوا : أيها العجوز ان صاحبنا أحب أن يراكِ . قالت : ومن صاحبكم . قالوا : عبد الله بن العباس . قالت : ما أعرف هذا الاسم . قالوا : ابن عم النبي صلى الله عليهِ وسلم . قالت : هذا والله الشرف العالي ذراهُ الرفيع عمادهُ ابن عم هذا النبي الذي دعا الى الحق وكان قومي أنصارهُ . قالوا : نعم . قالت : فما يريد مني . قالوا : يريد يكافئك على ما كان منك . قالت : لقد أفسد الهاشمي ما ناَل لهُ ابن عمهِ عليهِ السلام . والله لو كان الذي فعلت معروفًا ما أخذت عليهِ ثوابًا فكيف انما هو شيء يجب على كل أحد ان يفعلهُ وهذا شيء حقير . قالوا لها : انهُ يحب أن يراكِ ويسمع كلامك . قالت : والله اني أحب ان أرى رجلاً من جناح النبي صلى الله عليهِ وسلم وعضوًا من عضدتهِ . فلما سارت اليهِ رحب بها وأدنى مجلسها وقال : ممن أنت . قالت : من بني كعب . قال : كيف حالك . قالت : بخير يا ابن أخي لم يبقَ من الدنيا ما يفرح حتى بلغتهُ واني الآن أعيش بالقنعة وصون التربة وتوقع الموت صباحَ ومساءَ . قال : اخبريني ما الذي أعددت لاولادك عند قدومهم بعد ان أخذنا خبزتهم . قالت : أعددت لهم قول الشاعر

وقد أبيت على الطوى وأظلهِ ॥ حتى أنال بهِ كريم المأكلِ

فأعجب بقولها وهمتها ومروءتها فقال لبعض أصحابهِ : انطلق الى خبائها فاذا أقبل بنوها فأتِ بهم . فقالت للغلام : انطلق فكن بفناء البيت فانهم

ثلاثة فاذا رأيتهم فتجد أحدهم دائم النظر الى الارض عليهِ شعار الوقار اذا تكلم أفصح واذا طلب انجح والآخر حديد النظر كثير الحذر اذا وعد فعل واذا ظلم قتل والآخر كأنهُ شعلة نار كأنهُ يطالب بثار فقال لهم لا تجلسوا حتى تأتوا امكم . فذهب الغلام اليَّ بهم فأدناهم وقال : اني لم أبعث اليكم الا لاصنع بعض ما يجب لكم ولوالدتكم . فقالوا : ان هذا لا يكون الا عن مسألة او مكافأة فعل جميل تقدم ولم يصدر منا واحدة منهما أفإن كنت أردت ابتداء المعروف فمعروفك مشكور وبرك مقبول . فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشرة من النوق . فقالت أمهم : ليقل كل منكم بيتاً . فقال الاكبر

تبدّت عليك بحسن الفعال * وطيب المقال وصدق الخبرْ

وقال الاوسط

تبرعتَ بالبذل قبل السؤالِ * فعلَ كريمٍ عظيم الخطرْ

وقال الاصغر

وحقٌّ لمن كان ذا فعله * بأن يسترقَّ رقاب البشرْ

وقالت العجوز

فعمرك الله من ماجد * ووقيت ما عشت شر القدرْ

ثم ودعوهُ وانصرفوا فقال : يا تميم وددت لو وجدت مزيداً في اسداء المعروف الى هذه الحرمة وبنيها وصارت تأوّهُ من تقصيره عن مرادهِ

قال العارفون : التأني في الامور أمان من المحذور . كم من تؤدة أفضت بصاحبها الى فرح وسرور وكم من عجلة أدت بصاحبها الى ندامة

وشرور . من استعجل في أمر يريده كان جديرًا أن لا يناله وان ناله كان جديرًا ان لا يدوم له لان الخلل ملازم العجل . واعلم : ان التثبت في الامور حسن وهو في الملوك أحسن والسرعة والاستعجال قبيح وهو في الملوك أقبح لا سيما اذا كان في أمر لا يمكن تداركه وهو ان المتأني يتوقع خيرًا والمستعجل يتوقع زللاً

الفصل الثالث

﴿ في الشكر ﴾

قال الله تعالى : فاذكروني اذكركم واشكروا لي ولا تكفرون . وقال عز من قائل : ولئن شكرتم لازيدنكم ولئن كفرتم ان عذابي لشديد . فيدل على ان عدم الشكر كفران النعمة . قال عليه الصلاة والسلام : لا يشكر الله من لا يشكر الناس . واعلم : ان الشكر لم يكن خاصًا باللسان بل بالجوارح وهو ان تستعمل كل جارحة من جوارحك فتصرفها الى ما خلقت له . مثلاً اللسان ما خلق الا لذكر الله وتلاوة كتابه وتستعمله في طيب القول . والنظر تصرفه فيما يؤدي الى مباح وحل لا الى حرام وغل . واليدان تصرفهما في الاحسان كاماطة الاذى عن كل شيء والعمل بهما في طاعة الله سبحانه وتعالى . والرجلان تصرفهما كذلك . ولذلك قام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبادة الله حتى تورمت قدماه فقيل له : أليس قد غفر لك الله

ما تقدم من ذنبك وما تأخر . قال : أفلا أكون عبدًا شكورًا وان من أُنعِمَ عليهِ بنعمةٍ فلم يؤدّ شكرها كان جديرًا بأن تنزَع منهُ . ولقد أنصف بعض بني أمية حين سئل بعد زوال ملكهم وانقراض دولتهم : ما كان سبب هذا الحادث العظيم والبلاء الذي قد نزل بكم . قال : عدم الشكر على ما أنعم الله بهِ علينا واشتغالنا باللهو عن الفكر في عواقبنا ولهونا عن النظر في مصالح رعايانا وتفويضنا الامور لمن أجحف بالرعايا وغفلتنا عنهم واختلاف الجند علينا لقلة العطاء فاستدعاهم أعداؤنا فأجابوهم وناصروهم علينا فأدى ذلك الى ما ترى . ومن أحسن ما رواهُ بعضهم : أن رجلاً سئل : ما سبب تقربك من الملك . فقال : قد أمحلت علينا سنة أدت بنا الى المهالك فأخذت رقعة وكتبت فيها : لقد عرضت حاجة أسقطت رداء الحياء على منكب الحرية وأطلقت لسان التعفف على خلاف العادة بالمسألة وأحوجت أهل الصيانة الى تحمل ذل الابتذال وقد وقع في الانفس أن في رأفة الملك وبرّهِ ما يكشف ضرًّ ويسترقّ حرًّا ويستوجب على الابد حمدًا وشكرًا

فامنن بما يفنى ويثمرُ دائمًا * حمدًا يدوم على مدى الايامِ

قال : وأوصلت الرقعة اليهِ وكان ذا فضل محبًا لاهل الفضل . فلما وقف عليها وقعت منهُ موقع الاستحسان فأرسل اليّ غلامهُ وعلى يدهِ ما سدّ الخلة ودفع العلة وشفى الغلة . فكتبت بيتين وناولتهما للغلام وقلت : ادفعهما لسيدك . وهما :

شكرتُ نوالك كل قافية * تختال بين المدح والغزلِ

فلقد ملأت بمـا مننت بهِ * كف الرجاء وناظر الأملِ

فلما وقف عليها طرب لها وقال : هذا الرجل جدير للاحسان حيث كان شكرهُ هذا على القليل فكيف اذا منحناهُ بالانعام . قال : فدعاني وألحقني بخاصتهِ وندمائهِ . فقلت :

أوليتني نعماً ملكت ببعضها * رقي فراقت مدحتي في شكرها
فلاشكرنك ماحييت وان أمت * فلتشكرنك أعظمي في قبرها

الفصل الرابع

﴿ في بيان ما يجب و يتعين على ولاة الامور العمل بهِ وما ينبغي ﴾
﴿ التحرّز منهُ وما ورد في ذلك من الاحاديث ﴾

اعلم ان أول شيء يجب على وليّ الامر العدل بهِ نشر العدل الذي هو صلاح العالم اذ هو الاساس الذي ينبني عليهِ نظام الملك لانهُ أساس الدين وهو ميزان الله في الارض بهِ ينتصف المظلوم ممن ظلمهُ وبهِ يؤخذ للضعيف من القوي وبهِ يتميز الحق من الباطل وهو من صفات الذات من تعلق بهِ نجي وأدخلهُ الجنة وكل الاعمال توزن بميزان العدل ولم يخلق الله تعالى في الارض أفضل من العدل . قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : أحب الناس الى الله وأقربهم السلطان العادل وأبغضهم الى الله وأبعدهم السلطان الجائر . وقال عليهِ الصلاة والسلام : عدل السلطان يوماً واحداً خير من عبادة سبعين سنة . وقال صلى الله

عليهِ وسلم : السلطان ظل الله في الارض يأوى اليهِ كل ملهوف . وقال النبي صلى الله عليهِ وسلم : اذا كان يوم القيامة لا يبقى ظل ولا ملجأ الا ظل الله عز وجل يستظل بهِ سبعة سلطان عادل . فانظر كيف بدأ صلى الله عليهِ وسلم بالسلطان العادل من دون السبعة . وقال صلى الله عليهِ وسلم : لعمل الامام العادل في رعيتهِ يوماً واحداً أفضل من عبادة العابد في أهلهِ مائة سنة . وقال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : والذي نفس محمد بيدهِ انهُ ليرفع للسلطان العادل من السماء من العمل مثل عمل جملة رعيتهِ وكل صلاة يصليها تعدل سبعين ألف صلاة . وقال عليهِ الصلاة والسلام : العدل من الدين وفيهِ صلاح السلطان وقوّة الخاص والعام وبهِ يكون خير الرعية وأمنهم . وقال العارفون بالله : لا ملك الا بالرجال ولا رجال الا بالمال ولا مال الا بالعمار ولا عمار الا بالعدل . فالعدل هو الاساس الذي ينبني عليهِ نظام العالم . فاذا استعمل الملك العدل عمرت البلاد وأمن العباد وتحصلت الاموال وكثر الرجال وانتظمت الاحوال وخصب الزمان وحصل الامن والامان . فيجب على ولي الامر او نائبهِ ان يبذل جدهُ وجهده في عمار البلاد وأمن العباد وان يكف عن الرعايا أيدي الغز والاجناد . وليحذر الملك أخذ المال من غير حلهِ ووضعهِ في غير محلهِ . وليعلم ولي الامر : ان كل ظلم علم بهِ ولي الامر ولم يبادر لازالتهِ كان ذلك الظلم منسوباً اليهِ وكان مؤاخذاً بهِ ومعاقباً عليهِ . فليتيقظ لهذه الامور ولينصف المظلوم من ظالمهِ اميراً كان أو مأموراً وليعلم أنهُ مسؤول عن ذلك بين يدي من بيدهِ تصاريف الامور فان مآلهُ اليهِ ولله عاقبة الامور

الفصل الخامس

﴿ في صفة أخلاق الملوك ﴾

ينبغي ويتعين على وليّ الامر ان يكون عاقلاً في ملكهِ شريفاً في نفسهِ موفياً بعهدهِ صلباً في دينهِ لازماً لصمتهِ متفكراً في رأيهِ متدبراً بعقلهِ شفوقاً برعيتهِ متيقظاً لعيوب نفسهِ همتهُ انبعاث الفكر عن عواقب أمرهِ متأنياً في أمورهِ مستعملاً الرفق في سائر أفعالهِ ليس لهُ أن يغضب لان الغضب مع القدرة يؤدي الى السرف في الانتقام ويعقب الندامة وليس لهُ ان يبخل لان البخل في الملوك من اكبر العيوب . قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : البخيل بعيدٌ من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة قريب من النار . وينبغي ان لا يكذب لانهُ لا يقدر أحد أن يكرههُ على شيء وليس لهُ ان يحسد الا من تقدمهُ من الملوك بحسن التدبير واصابة الرأي وصحة السياسة ولا يطمع في استقامة العامة مالم يبدأ بتقويم الخاصة وأن يكون حذرهُ من المقربين فوق حذرهِ من المتباعدين ولا يغتر بثناء الناس عليهِ فربما كان ذلك عن هوًى . وينبغي ان لا يستغني بتدبير يومهِ عن تدبير غدهِ . والحذر كل الحذر أن يفتنهُ الملك ونوم الزمان أو تشغلهُ النعمة عن التيقظ لفقراء رعاياهُ عند قحط الزمان قال بعضهم : فطرت ليلة من ليالي شهر رمضان عند أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنهُ فأتيتهُ عند الغروب فلما أذن المغرب مد يدهُ الى طاق بجانبهِ فأخرج منها خريطة مختومة ففتضها فاذا فيها سويق من شعير فشرب ماءً واستف منهُ وناولني ثم ربطها وختمها فقلت :

أبخل بك هذا يا أمير المؤمنين . قال : لا والله انما ينبغي لوليّ الامر ان يكون مأكلهُ من أدنى ما تأكل منهُ رعاياهُ وأخشى ان يأتي الحسن او الحسين بشيء من الدسم فيضعا عليهِ فيلبناهُ لي فقد راوداني على ذلك فأبيت

ومما يجب ويتعين على وليّ الامر ان يقيم الحد أو التعزير في العقوبة على من استحقها بقدر الذنب لا بحسب الهوى والغضب فان الملك اذا أقام العقوبة على احد بالغضب أدى بهِ ذلك الى السرف في الانتقام فاذا تعمد ذلك فقد جار واذا جار تخلى الله عنهُ واذا تخلى الله عنهُ هلك وهلك معهُ من يناصرهُ

ومما يجب ويتعين على وليّ الامر عدم الاصغاء لاول ناقل ينقل اليهِ حديثاً فانهُ ان عمل بقول اول ناقل قبل الاختبار فقد جار واذا جار تخلى الله عنهُ . قال الله عز وجل في حق كل ناقل : يا أيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبإٍ فتبينوا . وفي قراءة فتثبتوا . ومن المنقول المشهور : التثبت في الامور أمان من المحذور . فينبغي التثبت في كل قضية عملاً بقول خالق البرية وان يفحص عما نقل اليهِ ويستخبر متأنياً الى أن يتضح لهُ الحق فاذا اتضح لهُ الحق عمل في ذلك بما هو موافق للكتاب والسنة فيكون اذا ما عمل بالعدل فيكون ذلك سبب نجاتهِ من النار يوم يغضب الجبار

فليحذر الملك العجلة فانها ندامة . قال العارفون بالله : من يتعجل الشيء قبل أوانهِ عوقب بحرمانهِ فان في العجلة الندامة وفي التأني الرشد والسلامة . ومن استعجل في أمر يريده كان جديراً أن لا ينالهُ وان

نالهُ كان جديراً أن لا يدوم لهُ لان الخلل ملازم العجل والتثبت في الامور أمان من المحذور وهو في كل أحد حسن وفي الملوك أحسن . والعجلة بالانتقام قبيح ومن الملوك أقبح لا سيا في أمر لا يمكن تداركهُ فان وليّ الامر اذا أمر بأمر تبادر الناس الى فعلهِ تقرباً لخاطرهِ وتوقياً لغضبهِ خصوصاً اذا كان وليّ الامر ممن لا يمكن مراجعتهُ إما لهوًى قام عندهُ أو تحرك غضب حدث لهُ أخرجهُ عن الحد فلا يستطيع أحد مراجعته . وليعلم وليّ الامر أعانهُ الله تعالى ان هوى النفس صدى يعلو على العقل فيصدي العقل فيضل صاحبهُ عن الهدى . فاذا رأى الملك ان هوى النفس غلب على عقلهِ في حال حكمهِ فيترك الحكم حين ذاك لان الشيطان استولى عليهِ حيث غلب الهوى على عقلهِ فهيج عندهُ الغضب فليس لهُ مخلص من الشيطان حين ذاك الا ترك الحكومة في ذلك الوقت وتأخيرها لوقت آخر لئلا يوقعهُ الشيطان وهوى النفس في ما يخرجهُ عن الحق فيضل عن الهدى فيهلك ولا ينفعهُ بعد ذلك الندم فلا خلاص لهُ في ذلك الوقت الا ترك الحكومة والاشتغال بغيرها أو القيام من المجلس لانهُ في تلك الحالة لا يطيع مرشداً ولا يصغَ لناصح أبداً . قال الحكماء : لا ترشد تابع هوى النفس عند استيلاء الهوى على عقلهِ فانِ الهوى قهرهُ فاستولى عليهِ الشيطان فصار كالبحر في هيجانهِ فنشأ الغضب الذي يخرجهُ عن الحد فصار أسير النفس والهوى . قال صاحب البردة رحمهُ الله : وخالف النفس والشيطان واعصهما

وقال العارفون بالله : ليس الاسير من أسرهُ عداهُ ان الاسير من قهرهُ

هواهُ فضل هداهُ ولم يصغَ للنصيحة من أعلاهُ ولا من أدناهُ لان تابع هوى النفس عقلهُ محجوب لا تفيد فيهِ موعظة فان الشيطان قد استولى عليهِ فأثار الغضب الذي ينشأ منهُ البغي فيؤدي بهِ الى السرف في الانتقام فيهلك ويهلك معه من يناصرهُ فان الهلاك في البغي . قال العارفون بالله : لكل عاثر راحم الا الباغي لا راحم لهُ . وما اجتمع الملك والبغي على سرير الا خلا . وليعلم ولي الامر حاطهُ الله : ان الرأي سيف العقل وأمضى السيوف ما بولغ في ارهاف حدهِ وأُجيد صقلهُ ولا تنصقل مرآة العقل الا عند اجتماع الحواس الخمس وأصفى اجتماعها وامكنهُ عند هدأة الليل فان كل رأي لا يتمحض بهِ الفكر ليلة كاملة والا فهو كمولود وُلد لغير تمام . وأفضل الرأي ما أجاد الفكر في حندس الليل نقدهُ وأحكم التدبير في هدأة الليل عقدهُ . فالمراد من هذه المواد ان يعلم كل انسان ان العجلة من الشيطان والتأني من الرحمن . وان التربص في الامور أمان من الوقوع في المحذور . قال عليهِ الصلاة والسلام : ان أحب عباد الله الى الله أحسنهم خلقاً . وقال صلى الله عليهِ وسلم : القصد والتؤدة وحسن الخلق جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة . وما وضع في الميزان أثقل من خلق حسن . وأن المتأني يدرك بصبرهِ وحسن خلقهِ ما لا يدركهُ الصائم القائم . وبحسن الخلق ينال الرجل درجة الصديقين . قال العارفون بالله : حسن الخلق حسنة لا يضرّ معها كثرة السيئات وسوء الخلق سيئة لا ينفع معها كثرة الحسنات . وقد امتدح الله تعالى نبينا محمداً صلى الله عليهِ وسلم بحسن الخلق من دون سائر المعجزات فقال في

الذكر الحكيم : وانك لعلى خلق عظيم • حديث حسن رواه الحسن عن أبي الحسن عن جد الحسن : ان أحسن الحسن الخلق الحسن • وقال : أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان : أنا لا اضع سيفي حيث يكفني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفني لساني • وكان بعض الملوك يوصي ولدهُ : يا بنيّ عامل الرعايا بالرغبة والرهبة وساو في ذلك بين الصديق والعدوّ • واعلم ان الولاية لا تتم الا لمن لهُ مال مبذول وسيف مسلول وعدل تطمئن اليهِ القلوب • ولقد أنزل في التوراة من جملة خمس كلمات : عالم لا يعمل بما علم هو وابليس سواء وامام لا يعدل في رعيتهِ هو وفرعون سواء • سئل عظيم الروم كسرى أنوشروان : بمَ دام لك الملك ودانت لك الرقاب • قال : بأربع خصال • قيل : وما هي • قال : ما أخلفنا في وعد ولا وعيد ولم نفعل أمراً الا بعد المشاورة مع ذوي العقول وقربنا ذوي الاصول وقدمنا على الشباب الكهول ولم نعاقب الا على قدر الذنب لا بحسب غضبنا • فلما بلغ قيصر ذلك اهتزَّ طرباً وقال : من كانت هذه سياستهُ دامت رئاستهُ

ومما يجب ويتعين على وليّ الامر ان كل مهم أراد فعلهُ فلا يقدم على الامر بهِ أو على فعلهِ الا أن قدم فيهِ الاستخارة والمشاورة اقتداء بالسنة • قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : ما خاب من استخار ولا ندم من استشار • وقال الله تعالى للنبي صلى الله عليه وسلم : ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر • فأمرهُ الله تعالى بمشاورة أصحابهِ فكان صلى الله عليهِ وسلم

لا يفعل أمرًا الا بمشاورتهم فامتدحهم الله تعالى في كتابهِ العزيز بقولهِ سبحانهُ : وأمرهم شورى بينهم ، فانظر أيها المتأمل في هذا الكتاب اذا كانَ سيد الاولين والآخرين أُمر بمشاورة أصحابهِ في كل أمر مع أنهُ أكمل الخلق طرًا ، فكيف يستقيم أمر من لم يشاور أو ينجح . رُوي أنهُ صلى الله عليهِ وسلم كان يقول لاصحابهِ : أشيروا عليَّ . ومما حصل بهِ النجاة من القتل بسبب المشاورة ما رُوي عن الشعبيّ رحمهُ الله في الحكاية المتقدمة . وقال العارفون بالله : خير الملوك من بدّل السيئة بالحسنة وشرّ الملوك من بدل الحسنة بالسيئة . ومن العدل النظر في أحوال المسجونين فان مما يجب ويتعين على وليّ الامر التفقد في كل حين لاحوال المسجونين والتبصر في أمرهم والفحص عما سجنوا بسببهِ ويعرضهم في كل حين فمن وجب أن يطلق فيخلي سبيلهُ ولا يتبع في الاعراض عنهم فعل من تقدمهُ بل لابد من الفحص عن أمرهم والتبصر في أحوالهم ولا يصغى الى قول من يقول : ذنبهم في رقبة من حبسهم ، لا خلاص لك عند الله ان لم تتبصر في احوالهم فتستخبر عن كل واحد منهم وما سبب حبسهِ ومن المتسبب في ذلك وأين هو وفي أيّ زمن حبس وبأيّ ذنب كان حبسهُ وبأيّ طريق حبس لان الله سبحانهُ وتعالى انما قلدك هذه الامانة في عنقك الا لتنظر في أحوال الرعايا بما فيهِ الخلاص لك عند الله تعالى يوم يسأل كل راعٍ عن رعيتهِ . فلا تلهينك الغفلة عنهم فتتركهم هملاً فانك لو تركت الناس هملاً وخلوت بنفسك تتعبد وتتهجد لكنت مسيئًا بتركك الواجب الذي افترضهُ الله عليك لان التبصر في أحوال الرعايا

فرض عين عليك لا فرض كفاية لان المطلوب منك ذلك حيث قلدك الله هذه الامانة في عنقك فيجب عليك التصدي لهذه الامور والفحص عنها فاذا فعلت ذلك مبتدئاً بهِ مبادراً اليهِ وضممت لذلك أعمالاً صالحة أُثبت وأُجرت وفزت مع الفائزين وان تلاهيت في تيهِ المملكة وغفلت عنهم ولم تتبصر في احوالهم وفتنك الملك عما أوجب الله تعالى عليك العمل بهِ فقد خبت وخسرت وهلكت مع الهالكين . فتيقظ من غفلتك واربع لنفسك وتبصر في أحوال المسجونين من رعاياك فمن وجب اطلاقهُ أطلق وخلي سبيلهُ ومن وجب تأديبهُ فلا تأديب لهُ أعظم من مكثهِ المدة التي مكثها في السجن ومن وجب عليهِ قطعٌ قطع ولا يتجاوز فيهِ غير القطع فان القطع أهيب وأرهب فانه كلما رُؤي هذا المقطوع متحسراً على بعض أعضائهِ وقع الخوف والرعب في قلب كل من يراهُ بل ويقال ما حصل لهذا من البلاء الا بارتكابهِ الفعل القبيح كالسرقة ونحوها . فلا يتجرأ أحد يفعل كفعلهِ فيقع الخوف في قلب من يراهُ بخلاف ما اذا قتل وغاب تحت أطباق الثرى فلا يرى بعد ذلك معه فانتسيَ ونسي فعلهُ القبيح فلا يحصل الخوف والرهبة كالذي يرى كل حين ناقص عضو من أعضائهِ فكل أحد يتعوذ بالله من شر ما رأى . واذا وجب الحد أقيم على من وجب عليهِ واذا وجب قتلٌ قتلَ بقاعدة الشرع الشريف لا بالتشويهِ الشنيع العنيف . قال الله تعالى : فلا يسرف في القتل . أي لا يتجاوز فيهِ الحد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا قتلتم فأحسنوا القتلة واذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحدّ أحدكم شفرتهُ وليرح

ذبيحتهُ . وبكل حال ينبغي اتقاء الدماء وعدم التجرىء بالقتل فان أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء فلا ينبغي التجرىء بسرعة الاقدام على أحد من خلق الله تعالى ولو بحق بل لا بد من التأني والتثبت في الامور فقد قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم . قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : ادرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم فان وجدتم للمسلم مخرجاً فخلوا سبيلهُ فان الامام لأن يخطىء في العفو خير من أن يخطىء في العقوبة . وقال صلى الله عليهِ وسلم : لا يحل دم امرىء مسلم الا باحدى ثلاث . رجل زنى بعد احصان وارتد بعد اسلام أو قتل نفساً بغير حق فيقتل بهِ . قال الله عز وجل : ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق . وقال تعالى : ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤهُ جهنمُ خالداً فيها وغضب الله عليهِ ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً . واعلم أيها الملك رعاك الله : أن الانسان بنيان الله فلا ينبغي سرعة الاقدام على هدم بنيان الله ألا ترى أن الله تعالى يغضب اذا انتهكت حرماتهُ ولا شيء أعظم من حرمة المسلم عند الله تعالى . فاذا وجب على أحد قودٌ أو قتل فأرى أن يكل وليّ الامر ذلك الى حكم الشرع الشريف وما حكم بهِ الشرع الشريف أمر ولي الامر بانفاذهِ حين ذاك على موجب الشرع فان ذلك أخلص لهُ عند الله تعالى يوم يؤخذ للمظلوم حقهُ ممن ظلمهُ يوم يقضي الملك العلام بين الانام يوم يؤخذ بالنواصي والاقدام . فكل هذه الامور يجب فيها مراعاة الحدود بحيث لا يخرج عن المعهود . قال سيد السادات : تدرأ الحدود بالشبهات . واعلم أنهُ لا أحد أكرم من الله ولا أرحم

ولا أعلم بأمور مخلوقاته ولا أحكم فمن استوجب العفو لا يضرب ومن استوجب الضرب لا يقطع ولا ينكب ومن استوجب القطع لا يقتل ومن وجب عليه حد من حدود الله لا يهمل. فينبغي لولي الامر التيقظ لمثل هذه الامور فلا يشغله تيه المملكة ولهو الاحكام عن التيقظ لهذه الامور وهذه المواد ولا يحسب ان هذا أمر هين عند رب العباد فيجب التحري ما امكن. وليعلم ولي الامر أعانه الله تعالى أن مدة زمن الولاية يسير جداً وهجوم الموت اسرع الى الانسان من الحياة فلا يغتر بزينة الحياة الدنيا فانها سريعة الزوال وعن قريب يصير منها الى الارتحال ويقدم بأعماله على ذي الجلال ويندم على ما اقترف من سوء الاعمال فلا يخرب أخراه باتباع هواه وليذكر وقوفه غداً في عرصات القيامة بين يدي الله. قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه: يؤتى بالولاة يوم القيامة فيقول الله تعالى لهم انتم كنتم رعاة خليقتي وخزنة ملكي في ارضي ثم يقول لاحدهم لم ضربت عبدي هذا فوق الجلد الذي أمرت فيقول يارب لانهم عصوك وخالفوك فيقول الرب جل جلاله لا ينبغي لاحد ان يسبق غضبه غضبي ثم يقول لآخر لم عاقبت عبدي هذا بأقل من الجلد الذي أمرت فيقول يارب رحمته فيقول الرب جل جلاله كيف تكون ارحم مني خذوا الذي زاد والذي نقص فاحشوا بهما زوايا جهنم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من رجل ولي امر عشرة الا جيء به يوم القيامة ويداه مغلولتان الى عنقه فان كان عمله صالحاً فك الغل عنه وان كان عمله سيئاً زيد عليه غل آخر. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالوالي يوم القيامة ويداه مغلولتان الى عنقه يرفل في

قيوده حتى اذا كان على جسر جهنم أمر الله تعالى الجسر فانتفض به انتفاضة خرج كل عظم من مكانه ثم يأمر الله تعالى العظام ان ترجع الى اماكنها ثم يسائله فان كان مقسطاً عدلاً غفر له واعطاه كفلين من رحمته وان قاسطاً جائراً خسف الله به الجسر فهوى في النار سبعين خريفاً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خمسة قد غضب الله عليهم وان شاء أمضى غضبه ويصيرهم الى النار ، أمير قوم يأخذ حقه منهم ولا ينصفهم من نفسه ولا يرفع الظلم عنهم ورئيس قوم يطيعونه وهو لا يساوي بينهم ويحكم بالميل والمحاباة الى آخر الحديث . وقال صلى الله عليه وسلم : كل راع لا يرفق برعيته لا يرفق الله به يوم القيامة . فعليك أيها الملك بالتيقظ لهذه المواد والعمل بالعدل بين العباد وبذلك الجد والجهد في عمران القرى والبلاد وقمع أهل البدع والفساد واظهار السطوة المرهبة لاهل البغي والعناد واعلم ان ربك لبالمرصاد فالحذر كل الحذر يا ملك العصر والاوان ان يفتنك تيه الملك ونوم الزمان واياك والغفلة فكم من غافل في سكر غفلته فجاءته منيته وفاتته امنيته فانتبه من سنة الغفلة يا ملك الاسلام والمسلمين وانظر في افعال من تقدمك من الملوك العادلين وعليك بخفض جناحك للفقراء والمساكين وأخذ الحق للمظلومين من الظالمين واذا أتاك سائل فاستقبله بالرحب والاكرام وانصت لسؤاله حتى يفرغ من الكلام واسأله عن حاجته التي جاءك فيها واياك ان تتلاهى عنه ولو ببعض الاعراض وليكن انصرافه من عندك وهو بطيب الكلام عنك راض . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا جاءكم السائل فلا

تقطعوا مسألته حتى يفرغ منها ثم ردوها عليه ببذل يسير او برد جميل فانه قد يأتيكم ليس بانس ولا جان ينظرون اليكم كيف صنيعكم في ما خولكم الله. وقال عليه الصلاة والسلام : اتخذوا عند الفقراء ايادي فان لهم دولة يوم القيامة. فتيقظ يا ملك الزمان وتامل الله في رعاياه فكما تدين تدان :

اذا ملكت فكن بالعدل مفتخرًا * واحذر سهام الدجى في حندس الظلم
فرب دعوة مظلوم يصادفها * اجابة بزوال الملك والنعم
لا تظلمن اذا ما كنت مقتدرًا * ان الظلوم على حد من النقم
وان تآمرت يا هذا على بشر * فكن شفوقًا بهم كالوالد الرحم
تنام عيناك والمظلوم منتبه * يدعو عليك وعين الله لم تنم

يقول الله عز وجل : ابن آدم اعدل كما تحب أن يعدل فيك . قال النبي صلى الله عليه وسلم : اتقوا دعوة المظلوم فانها تحمل على الغمام يقول الله وعزتي وجلالي لانصرنك ولو بعد حين. فعليك ياملك الاسلام بمراقبة الملك العلام والاهتمام التام بالعدل بين الانام ولا يشغلك عن ذلك ما أنت فيه من الاحكام . واعلم أن عملك في كل يوم من الصبح الى الظلام يعرض على نبيك محمد عليه أفضل الصلاة والسلام . فانظر ماذا يكون فيه سرور نبيك عليه السلام اذا رأى صالح عملك بين أعمال الانام . والحذر كل الحذر من عمل سوء يؤدي بك الى الانتقام عند القيام يوم يعض الظالم على يديه ولا ينفعه ما ندم عليه ويقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلاً . فعليك يا ملك الاسلام والمسلمين بالاقتداء بقول العلماء العاملين وحفظ رأي العقلاء الناصحين

وعليك بمداراة الناس كما ورد عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم : من غير شك ولا إِلباس علمني ربي بعد الايمان مداراة الناس . واعلم يا ملك الزمان أن الدنيا ظل زائل وهي دار أنت منها منقول وعما عملت فيها مسئول فاجعل العدل فيها لك وزيرًا تجدهُ في عرصات القيامة شاهدًا لك ونصيرًا فانك اذا عاملت رعاياك بالعدل عاملك الله تعالى باللطف والفضل فعليك بانتهاز الفرصة بتقليد المنن في أعناق الرجال فان النعمة لابد ان تزول اما بشكر جزيل او خزي طويل والايام صحائف الدهر فلا يغرنك زهرة الحياة الدنيا ولا يغرنك بالله الغرور فقد قال من بيدهِ تصاريف الامور : وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور . ولتعلم رعاك الله ان الدنيا في معرض الزوال ولا بد لك عنها من الارتحال فلا تغتر بزخرفها فزخرفها وبال ونعيمها أسرع شيءٍ الى الانتقال واعلم انها لم تكن الا بعد ان كانت في يد غيرك وسترجع منك الى غيرك وتندم على عدم الازدياد فيها من فعل الخيرات ولا ينفعك الندم على ما اكتسبت من الموبقات . واعلم ان من غرس العلم اجتنى النباهة ومن غرس الاحسان اجتنى المحبة ومن غرس الطمع اجتنى الذل ومن غرس المداراة اجتنى السلامة وان عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالاعمال

كتب الاسكندر الى ارسطاليس الحكيم أن أرسل اليَّ بموعظة . فكتب اليه يقول : اذا صفت لك السلامة فجدد ذكر العطب واذا اطمأَن بك الامن فاستشعر الخوف واذا أُحببت نفسك فلا تجعل لها في الآثام نصيبًا واحذر ايها الملك من يوم لا ليلة لك بعدهُ ومن ليلة لا يوم لك بعدها

وأعدل ما استطعت فانك مجزي بالعدل عدلاً وبالجور جوراً. واعلم ان هلاك المرء في ثلاث : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه. وهلاك الملوك في ارتكاب الآثام والانفراد بالرأي والسلام. وعليك ايها الملك ان تراعي في أوامرك واحكامك وافعالك القواعد الشرعية التي أمرك الله باتباعها كما جاء عن اشرف البرية فاياك والعدول عنها اوعدم التمسك بشيء منها فانها العروة الوثقى والقائدة من تمسك بها الى الدين والتقى فاذا تمسكت بالكتاب والسنة وعملت بهما مخلصاً لله تعالى في اقوالك وافعالك فلا جزاء لك الاّ الجنة ويلقي الله تعالى هيبتك في قلوب رعاياك فلا يخرجون عن طاعتك وينصرك الله تعالى بالرعب فلا يتجرأ عليك في مملكتك عدوّ ولا منافق

الفصل السادس

﴿ في منع الحجاب ﴾

ليعلم وليّ الامر أعانهُ الله ان ممـا يجب ويتعين على ولاة الامور أعانهم الله تعالى على حسن تصاريف الامور أن لا يتحجبوا عن الرعايا بل ولا يتخذوا حجاباً قست قلوبهـم فربما جاء مظلوم في وقت من الاوقات فوجد الملك متحجباً وهو يريد قضاء حاجتهِ فيطردهُ الحجاب ويبعدونهُ فلا يظفر بمرادهِ ولا يعرض ظلامتهُ على وليّ الامر في ذلك الوقت فيرجع ساخطاً خائباً منكسر الخاطر فربما تضرع بالدعاء الى الله على ذلك الملك الذي تحجب عنهُ ولم يقضِ حاجتهُ فلا يأمن أن

يصاب في ملكهِ أو في نفسهِ . واعلم أنهُ ليس شيءٌ أضيع للملك ولا أفسد لاحوال الرعايا من تحجب الملك وتعذر الاذن عليهِ في الدخول وليس شيءٌ أهيب في قلوب العمال من سهولة الحجاب فاذا كان الملك سهل الحجاب لم تقدر العمال أن يجوروا على أحد من الرعايا لانهُ يكون لهُ اطلاع على سائر الاعمال . فينبغي أن يأمر الحجاب أن لا يحجبوا عنه متظلمًا ولا شاكيًا فقد كان الملوك العادلون لا يغفلون عن ذلك ولا يغلقون دون رعاياهم الابواب انما كان شغلهم ودأبهم الجلوس لتعاطي مصالح الرعايا من الشروق الى الغروب . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ يوصي عمالهُ لاتغلقوا ابوابكم دون ذوي الحاجات . وكان يقول : يجب عليَّ أن اسافر في أقطار الارض لانظر في احوال الرعايا فان فيهم من لا يستطيع الوصول اليّ . ولما قلد معاوية ولدهُ يزيد عملاً من الاعمال اتخذ حجابًا يحجبون الناس وكان لا يخرج لتعاطي الاحكام الا أحيانًا لتحجبهِ وربما لاستعمالهِ أشياء أدت الى وجوب الحجاب فشكا الناس لوالدهِ معاوية أمير المؤمنين فكتب اليهِ يقول

أنصب نهارًا في طلاب العلى * واصبر على فقد لقاء الحبيب
حتى اذا الليل بدا مقبلاً * واكتحلت بالغمض عين الرقيب
فبادر الليل بما تشتهي * فانما الليل نهار الاريب
كم من فتى تحسبهُ ناسكاً * يستقبل الليل بأمرٍ عجيب
ولذة الاحمق مكشوفة * يسعى بها كل عدوٍّ رقيب

فلما وصل اليهِ الكتاب اقلع عما كان فيهِ من الحجاب وصار يجلس

لتعاطي مصالح الرعايا من الشروق الى الغروب . ولما آلت الخلافة الى ابي جعفر المنصور اخي السفاح احتجب عن الناس واتخذ على أبوابهِ حجاباً وحرّاساً بالسلاح وأبواب الحديد فشق ذلك على الرعايا وحصل لهم بسبب تحجبهِ غاية التعب والضيق ولم يتجاسر احد يذكر لهُ ذلك . فلما حجّ البيت بينا هو ذات ليلة طائف بالبيت اذ سمع قائلاً يقول اللهم أشكو اليك ظهور البغي والفساد وما يحول بين المرء والحق فجلس المنصور على كرسي ودعا بالرجل فقال لهُ ما الذي سمعتك تقول قال وليَ الامان يا أمير المؤمنين قال ولك الامان . قال يا أمير المؤمنين ان الله تبارك وتعالى قد استرعاك أمر عبادهِ ودماءهم وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجاباً وحراساً بالسلاح وأبواب الحديد وبعثت عمالك في جباية الاموال وجميعها لك وحجبت عنك المظلوم ووليت أمرهُ غيرك . فلما رأت وزراؤك ذلك قالوا هذا خان الله تعالى فنخونهُ وتآمروا ان لا يصل اليك من أمور الناس الا ما أحبوهُ لانفسهم . فلما انتشر ذلك عنك وعنهم هابهم الناس وصانعوهم بالهدايا والتحف والاموال وان طلبك الناس او المظلوم حيل بينك وبينهُ وان ألحّ في طلبك ضرب بين يديك ضرباً مبرحاً وأنت ترى ولا تنكر فما بقاء المسلمين على هذا يا أمير المؤمنين ولقد رأيت عدلاً من ملك الصين ما رأيتهُ في المسلمين وهو أنهُ أُصيب بسمعهِ فدخلت عليهِ يوماً فوجدتهُ يبكي فظننت أن بكاءهُ لما نزل بهِ من مصيبة عدم السمع فقال لست ابكي لما نزل بي من عدم السمع ولكن كنت أسمع صريخ المظلوم ببابي فأزيل مظلمتهُ والآن يصرخ ببابي فلا

أسمعهُ ولكن ان كنت عدمت السمع فلم أعدم النظر نادوا في الرعايا لا يلبس ثوباً أحمر الا مظلوماً وكان يترقب أمور الناس طرفي النهار ان رأى مظلوماً ازال مظلمتهُ هذا وهو كافرٌ بالله تعالى بلغت رأفتهُ بالكافرين فكيف وأنت مؤمن بالله تعالى ومن أهل بيت نبيهِ لا رأفة لك بالمسلمين. قال فبكى المنصور حتى غشي عليهِ فلما أفاق طلب الرجل فلم يجدهُ فقال المنصور لعل هذا ملك من ملوك السماء أرسلهُ الله تعالى يوقظني بهِ فأمر برفع الحجاب ولزم الجلوس لمصالح الرعايا من شروق الشمس الى مغيبها

ولما وُلي مصر أحمد بن طولون حصل منهُ من الظلم والتحجب ما لم تطمئن بهِ قلوب الرعايا. فلما اشتد الامر على الرعايا أتوا الى السيدة نفيسة فشكوهُ اليها فقالت لهم: متى يركب. قالوا: في غدٍ. فكتبت ورقة ووقفت في طريقهِ ونادتهُ، يا أحمد. فلما رآها ترجل عن فرسهِ وأخذ الرقعة من يدها وقرأها فاذا فيها مكتوب: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، ورُدت اليكم الارزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الاسحار نافذة غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن يموت المظلوم ويبقى الظالم، ولكن اعملوا ما شئتم فانا صابرون، وجوروا فانا الى الله مستجيرون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون. فلما فرغ من قراءتها غشي عليهِ نصف يوم فكاد أن يهلك. فلما أفاق أقلع عما كان عليهِ من التحجب وترك المظالم والبدع وعدل في الرعايا حتى كاد الذئب مع الغنم يسرح فلا يسطو عليها. فعليك يا ملك الزمان بسلوك طريق هؤلاء الذين بحسن السيرة

في الرعايا تقدموك فقد كان دأبهم التيقظ لاحوال العباد والنظر في عمران القرى والبلاد وليكن دأبك المشي على سنتهم واتباع مناهجهم . وعليك بالاهتمام التام بأمر دينك وأداء ما فرض الله عليك واجتناب ما نهاك عنهُ . فالحذر كل الحذر أن يفقدك حيث أمرك أو يراك حيث نهاك . واعلم انك ان لم تبدأ باصلاح نفسك لما أصلحت رعاياك فانك اذا بدأت باصلاح ظاهرك و باطنك مع الله أعانك الله ببركة ذلك على اصلاح ولايتك . وعليك يا ملك الزمان بالاجتهاد في اعزاز الخلق والقيام برونق الحق وعدم الخروج عن قواعد الشريف وقوام نظام الملك المنيف لتحمد سيرتك وتخشى سطوتك وتقع رهبتك في قلوب المفسدين ذلك أعذر لك عند رب العالمين. وعليك يا ملك الزمان باحترام الصالحين واكرام العلماء العاملين وملازمة الفعل الجميل واجتناب الفعل الردي الوبيل واعدل ما استطعت فانك مجزي بالعدل عدلاً وبالجور جوراً . واعلم أن طباع الرعية نتيجة طباع الملك واقتداء الرعية في كل زمان بالسلطان . ألا ترى أن بعض البلاد اذا وُصفت بالعمار وأن أهلها في خصب وأمان كان ذلك أدل دليل على كمال عقل السلطان واستقامته مع الله تعالى في السر والاعلان فقد صح قول القائل : الناس بملوكهم أشبهُ منهم بزمانهم . قال سيد ولد عدنان : كما تدين تدان . واعلم أن العدل في كل شيء محدود فالاولى أن لا تتعدى الحدود فان قوانين قاعدة الملة المحمدية مؤسسة على القوانين العدلية اذ فيها من الحكم الالهية ما يعجز عن ادراكها القوى العقلية . قال الله تعالى في محكم

التبيان : ان الله يأمر بالعدل والاحسان. فمن العدل الشفقة ولين الجانب في الاقارب والاجانب والحلم المتوسط بين الغضب والصخب والتؤدة في كل شيء. فان العجلة مطية العطب. واعلم يا ملك الزمان أنها أمانة قلدها الله تعالى لك في عنقك بعد أن عرضت على السموات والارض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . أي خفن منها من حملها وحملتها أنت أيها الانسان فان عملت فيها بما أمرك الله تعالى أثبت وأجرت وفزت مع الفائزين وان ملت عن الحق ولم تعمل بما أمرك الله تعالى فيها خبت وخسرت وهلكت مع الهالكين . قال أبو ذر : قلت يا رسول الله ألا تستعملني على عمل ، فضرب بيده على منكبي وقال ، يا أبا ذر انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزي وندامة الا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لتؤدن الحقوق الى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء . ولاجل هذا الخطر العظيم تورّع عن هذا المقام الزاهدون وشمر عن التلوّث بالدنيا ذيل العابدون فانا لله وانا اليه راجعون

الفصل السابع

﴿ في ما يتعلق بأحوال الجسور والزراعة وتفقد أحوال الرعية ﴾

﴿ وخصوصاً في زمن القحط ﴾

مما يجب ويتعين على ولاة الامور بذل الجد والاجتهاد في صرف همهم لاتقان الجسور واحكام ما يتعلق بالمساقي والثغور فان ذلك من

أهم المهمات وآكد الامور الضروريات اذ هي من معظم المواد التي يستقيم بها نظام الملك وعمران البلاد . فينبغي للملك المبادرة لاحوالها وصرف الهمم لاصلاحها واتقانها واحكامها وأن يندب لها من جند المملكة من يثق بدينهِ وعقلهِ ومعرفتهِ واستقامتهِ وفضلهِ بحيث لا يكون عندهُ طمع ولا لهُ الى الدنيا ميل ولا التفات فينتدب لاحكامها في أبدر ما يكون من الاوقات حال الطين رطباً والعمل سهلاً وليكن زمن الشتاء والا فلا نفعَ أصلاً وليصحب معهُ من أهل الخبرة من يثق بمعرفتهِ وديانتهِ وعدم طمعهِ في الدنيا وحسن استقامتهِ وأمانتهِ فيقوم عليها ويتعاطى مصالحها واصلاح جراريفها وأخشابها واستحسان أثوارها وآلاتها ولتكن أثوارًا قادرة على العمل صالحة لذلك وليسلمها في كل يوم عند انتهاء عملها لخولة متدينين مستقيمين يقوموا بمصالحها ويجعل عليهم أميناً متديناً يحضر علفها ويعطي كل ثور حقه من علفهِ تماماً وليباشر الامين الاثوار في أكلهم الى أن يتم علفهم وليكن الصرف عليها من بيت المال وكذا على عمالهم وعند عملها يتتبع مواطن قوة المياه عند طغيانها فيتقن عملها حتى يكون الجسر مانعاً حابساً للمياهِ ويشدد على العمال ويتوعدهم ان قصروا في العمل أو تساهلوا فيهِ فان معظم الخراب للبلاد انما هو من التساهل في عدم اتقان هذا الباب . فيجب ويتعين امعان النظر في أحوال القناطر والمساقي الخراجية لان القناطر من جملة الثغور وكل قنطرة منها ثغر من ثغور الاسلام وقد أحكمها الملوك المتقدمون وجعلوا لها قوانين يجب الفحص عنها والتيقظ لها وعدم الغفلة عنها

يحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنهُ رُؤي بعد موتهِ في النوم فقيل لهُ : ما فعل الله بك . قال : ان الامر عظيم ليت أم عمر لم تلد عمر ، طوبى لمن لم يكن واليًا ولا حاكماً . قيل : فماذا لقيت . قال : قد أوقفني الله تعالى بين يديهِ فقال لي يا عمر قنطرة بالعراق لم تحكم بناها وقعت فيها شاة فانكسرت . قلت : يا رب وأين عمر وأين العراق . فقيل لي : أمر لم تقدر أن تحكمهُ فلمَ وُليته

فانظر يا ملك الزمان هذا عمر بن الخطاب مع تيقظهِ وعدم غفلتهِ وبذلهِ الجد والاجتهاد في العدل وهو أعدل الامة بعد أبي بكر رضي الله عنهما عوتب في ذلك حتى كاد أن يهلك مع جلالة قدرهِ واتباعهِ الحق في سائر أفعالهِ وحرصهِ على ملازمة العدل والعمل بهِ في ولايتهِ نوقش على غفلتهِ عن الاهتمام بعمل تلك القنطرة اذ هي ثغر من ثغور الاسلام فكاد يهلك . فكيف بك يا ملك الزمان وفي مملكتك من القناطر والمساقي التي لم تحكم أمرها ولم تتقن بناها شيء كثير وأنت عنهُ من الغافلين فان لم تتيقظ لذلك والا فلا عذر لك غداً مقبول عند رب العالمين

فعليك بالاهتمام في الكشف عليها وتعمير ما وهى منها واحكام أمرها واتقان بنائها وكذا الاهتمام بجرف الجسور والمساقي السلطانية والبلدية . واعلم أن الجسور البلدية عليها عمل كبير واتقانها يؤدي الى نفع كثير . غير أن الرعايا يتساهلون فيها ولا يهتمون بأمرها والحكام غافلة عنهم فيها فلما علم الرعايا أن الحكام لا اهتمام لهم بأمرها تساهلوا في اتقانها واحكامها فينبغي التيقظ لها والحث على عملها والزامهم بالعمل فيها بدري الوقت

حال الطين رطباً والعمل سهلاً فان كل جرف لم يكن شتوياً لم يحبس المياه عند طغيانها فان المياه لا يحبسها الا الجسر المجروف من الشتاء . فاذا أمرت أيها الملك باتقان هذه المواد واحكام أمرها وكشفت بنفسك عليها أو بمن تثق بهِ وبدينهِ وأمانتهِ وتم أمرها محكماً حبست المياهُ ورُوي ما تحتها من القرى والبلاد واطمأن العباد وخصب الزرع وكثرت الاموال ونمت الغلال فقد كان الملوك الذين بالحكم تقدموك معظم اهتمامهم احكام الثغور واتقان الجسور والذب عن الرعية والعمل بالعدل في كل قضية

رُوي أن كسرى أنوشروان الملقب بالملك العادل في ذلك الزمان أظهر ذات يوم انهُ مريض وأن الطبيب وصف لهُ لبنة قديمة من بلد خراب فأنفذ رجالهُ في طلب تلك اللبنة فطافوا قطر مملكتهِ ثم عادوا ولم يجدوا قرية خراباً يأتونهُ بلبنة منها فأتوا خائفين لعجزهم عن أن يجدوا لبنة قديمة من بلد خراب فقالوا معتذرين : ايها الملك لك المعذرة لقد طفنا قطر مملكتك فلم نجد بلداً خراباً تأتيك بلبنة منها ففرح بذلك وقال : انما أردت أختبر مملكتي ان كان فيها قرية خراب فأعمرها وسرَّ بذلك وسرَّ أهل مملكتهِ . ووفد عليهِ رسول ملك هندوستان بمكتوب يقول فيهِ : أنفذ اليَّ خراج مملكتك لاني أولى بالملك منك فقد أنفذت قدحاً من برّ ليبذر في مكان خالٍ من الزرع بعد ريّ الارض فطافوا بهِ قطر مملكتي فلم يجدوا مكاناً خالياً من الزرع يبذر فيهِ ذلك القدح فتبين لي أن مملكتي أعمر من مملكتك فأنفذ اليَّ خراج مملكتك . فلما قرأ كسرى كتابهُ أمر بانزال الرسول منزلاً الى الغد ثم أحضرهُ من الغد بالديوان فدنا

بصندوق ففتحهُ فأخرج منهُ قبضة من حلفا فناولها للرسول وقال لهُ : هل في مملكتكم من هذا . قال : كثير . فقال لهُ كسرى : ارجع الى صاحبك وقل لهُ يجب عليك أن تعمر ولايتك فانها خراب فكيف تطمع في ولاية عامرة فانك لو طفت قطر مملكتي لا تجد فيها أصلاً من حلفا ولو بلغني أن في مملكتي عوداً واحداً من حلفا لصلبت عامل تلك الولاية . فانظر يا ملك الزمان كيف كان اهتمام من تقدمك من الملوك في عمران البلاد وتأمين العباد وأمن السبل وحفظ الأراضي عن أن يحصل فيها أدنى شراقي أو أدنى بقعة ينبت فيها ما لا يزرعون

وان مما يجب ويتعين عليك ان رعاياك اذا طرقتهم نائبة من نوائب الدهر كضيق معيشة أو قحط زمان أو غلوّ أسعار فتيقظ لذلك وتصرف همتك للنظر في احوالهم ومعايشهم فان هذا الباب أمر عظيم وعليهِ جل عمار الوجود لان المملكة اذا غلت أسعار مأكولاتها وحصل فيها القحط رحل عنها أهاليها فتخرب فلا بد من تيقظك لهذا الباب

واعلم أنهُ منصب جليل منصب الاحتساب قد تولاهُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسهِ فعدلت السوقة خوفاً من سطوتهِ وبأسهِ فيجب عليك أنت المبادرة للنظر في ذلك والاهتمام بالفحص عما هنالك ولا تكل أمر هذا الباب الى متولي منصب الاحتساب فان محتسبي هذا الزمان كل منهم خبيث لبيث خوان وهذا الباب من الامور المهمة التي ينبغي ان لا يغفل عنها ولا يتساهل في أمورها فان الملك متى غفل عن ذلك وتساهل فيهِ وضاق على الرعايا معايشهم رحلوا الى أرض اخرى وتركوا

مملكتك خراباً قفرى فلا جواب لك غداً عند الله حين تسئل عنهُ دنيا وأخرى فالمبادرة لمثل هذه المواد فان فيها نفع جل العباد فان كل أحد محتاج لهذا الباب فان الاسعار اذا غلت وقل جالبها حصل للرعايا غاية الاكتراب فعليك باحضار أرباب الخبرة والمعرّفين والفحص عن سعر كل بضاعة من النصحاء العارفين وعن مادة كل شيء وأصلهِ ومن أين تحصل تلك البضاعة ومن يجلبها ومن يشتريها اذا جلبت وليصحب الملك معهُ في الفحص عنها من يثق بدينهِ وعقلهِ ونصحهِ ومعرفتهِ ولا يعتمد ولي الامر في هذا الباب على متولي منصب الاحتساب فقد انخرم نظام هذا المنصب وصار المحتسب عاملاً مكاساً ليس لهم دأب الا جمع السحت من سوقة هذا الزمان فاذا أرضوهُ بما يرضيهِ سمح لكل منهم أن يبيع بضاعته بما يرتضيهِ حتى صار اذا وردت بضاعة للديار المصرية من الجهات القبلية أو البحرية فلا يتجرّأ أحد من أصحاب تلك البضاعة ان يبدأ ببيع شيء منها الا ان أجاز لهم متولي الاحتساب ولا يجيزهم الا ان أرضوهُ بمبلغ لهُ جرم فاذا أرضي أمرهم بالبيع بما أرادوا فيحصل منهم في بيعهم غاية الجور والاجحاف لما أخذ منهم ذلك المحتسب الظالم من الدنانير والانصاف فبهذا الموجب غلت الاسعار وحصل غاية المضار وقد تواصى الناس على أكل مال بعضهم بعضاً بالباطل فينبغي للملك ان لا يدع الناس هملاً يأكل بعضهم بعضاً وليعلم ولي الامر أعانهُ الله أن هذا الباب يهتم من أمرهِ الكبير والصغير والفقير والامير فلا ينبغي أن يغفل عنهُ فليبدأ وليّ الامر أولاً بمادة الحبوب فيطلب

معرّفيها وخزانها والاستخبار منهم عن أسعارها حين شرائها وإلزامهم بيعها وعدم خزنها وادخارها لطلب أعلا الثمن في أسعارها وأن لا يرسلوها لمملكة غير تلك المملكة طلباً لغلوّ سعرها فالحذر كل الحذر ان يمكنهم من ذلك ويسمح لهم بنقلها لمملكة من أبعد الممالك فان ذلك مما يقحط البلاد ويجلب الضرر لجل العباد فلا بد من استيفاء الفحص عن مواد الحبوب ثم ينظر بعد ذلك في مادة اللحوم والشحوم والامواه كالسمن والعسل ونحوه فيحضر من معرفي كل طائفة جماعة ويستخبر منهم عن أسعارها ويلزم معلميها عدم خزنها طلباً لغلوّ أسعارها ولا يثق بقول احد من معرّفيها الا بمن يثق بدينهِ وأمانتهِ واستقامتهِ وعدم خيانتهِ ومن رآهُ تعدى في بيعهِ وجار في سعر بضاعتهِ وعرضت شكايتهُ عليهِ قابلهُ بالبطش بما هو مستحقهُ ليرتدع غيرهُ ويلزم كل أحد الاستقامة في بيعهِ وترك الحيف وعدم التجرّي في الاسعار «حاسبوا السوقة فانهم لا ذمة لهم» فينبغي ويتعين على ولي الامر أن يصرف همتهُ في النظر في ما يتعلق بهذه المواد وليتقرب الى الله تعالى بامعان النظر والفحص عن هذا الباب ولا يكل أمرهُ لمتولي الاحتساب خصوصاً ما يتعلق بالاقوات فان في خلق الله تعالى من هو قليل الكسب لا يتجاوز كسب نهارهِ ثلاثة أنصاف فماذا تقوم بأودهِ حال غلوّ الاسعار مع ما انطوى عليهِ طباع السوقة من الحيف وقلة الانصاف خصوصاً اذا كان الشخص كثير العيال فغلو الاسعار يؤدي بالرعايا الى ارتكاب المحرمات وما لا يجوز فعلهُ من ارتكاب المنكرات فاذا فحص ولي الامر أعانهُ الله تعالى عن

هذه المواد وإلزام كل أحد بالاستقامة في بيعه بالعدل والانصاف وعدم الجور والاجحاف حصل للرعايا القناعة برخص الاسعار ورجع مفسدوهم عن

التعدي بالفساد والاضرار وأنصف كل من نفسه رهباً من

سطوة الملك وبأسه ومشوا على المنهج القويم واتعظوا

بما جاء في الآيات والذكر الحكيم « وزنوا

بالقسطاس المستقيم» وعدلوا عن اضرار

أحد من المسلمين وعملوا بقول

سيد المرسلين : اذا وزنتم

فأرجحوا وصلى الله على

سيدنا محمد وعلى

آله وصحبه

وسلم

فهرست الكتاب

صحيفة

